الترجمة ومقامها

قلما تجاوز العرب في علوم الدنيا حدّ التقليد والاقتباس حتى في عهد الدولة العباسية التي هي من سائر دولهم بمكان الشباب من ادوار العمر — فلا اخترعوا ولا اكتشفوا ولا ابتكروا في تلك العلوم الاّ قليلاً وانما كادوا يحصرون اجتهادهم في علوم الدين حتى جروا فيها أبعد شوط . على انهم اجادوا في باب النقل وصاروا به اهل فضل لتحريهم الامانة حتى سمّوا حلقة الاتصال بين القديم والحديث . واقلّ ما يقال فيهم انهم فهموا علوم اليونان من رياضة ومنطق وطبّ حق فهم وهذا ما مكّنهم من الاجادة في ترجمتها الى العربية والاضافة اليها والتعليق عليها وادخال بعض التغيير في اعراضها

والذي يقرأ وصف الطرق التي اتبعوها في الترجمة يراها مشابهة للطرق المتبعة في هذا العصر ويرى ان ما كان تراجمتهم يفضلونهُ منها هو ما نفضلهُ نحن الآن . قال الصفدي قولاً ينطبق على بعض تراجمة هذا العصر كل الانطباق حتى كأنهُ يكتب عنهم بعين الناظر الى المستقبل لا ممّن جاء قبلهُ منهم :

« والتراجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما . وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدلّ عليهِ من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبهُ . وهذه الطريقة رديئة لوجهين . احدهما انهُ لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواصّ التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائمًا وايضًا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . والطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما . وهو ان يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنهِ ويعبّر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ أم خالفتها . وهذا الطريق اجود . ولهذا لم تحتج كتب حنين ابن اسحق الى تهذيب الاّ في العلوم الرياضية لانهُ لم يكن فيها بخلاف كتب الطب والمنطق الطبيعي والالهي فان الذي عرّبهُ منها لم يحتج الى اصلاح . فاما اقليدس فقد هذّبهُ ثابت بن قرة الحراني وكذلك المجسطي والمتوسطات بينهما » انتهى

وليست الترجمة بالامر الهيّن بل في صعبة واصعب من التأليف لأن المؤلف طليق بين

معانيه والمترجم اسير معاني غيره مقيد بها مضطر الى ايرادها كما هي وعلى علاّتها اذا لزم الامانة في الترجمة كما هو الواجب والاّ فليس مترجماً بل مصنف . ثم انهُ يستحيل على مترجم مقالٍ ما ان يجيد ترجمتهُ الاّ اذا فهم موضوعه تمام الفهم . فمن لم يدرس الفلك لا يطق ترجمة مقالة فلكية . ومن لم يدرس الرياضة لا يطق ترجمة مقالة رياضية فتقول ان فلاناً ترجم المقالات البديعة في فن لم يدرسهُ . نعم ولكن معانيها معانيهِ هو لا معاني المؤلف الذي ترجم عنهُ . فاذا صحّ انتها بالبديعة فربما كان ذلك لحسن مبناها لا لفصل معناها . والغربيون يجلّون قدر المترجم من كتّابهم اذ لا يقدم على الترجمة منهم الاّ من آنس من نفسهِ القدرة عليها . وترى المترجم يمهر ترجمتهُ باسمائهِ وهو الكاتب القدير وقد لا يستنكف من توقيع اصغر المقالات المترجمة بهِ

وقول الصفدي في وصف الطريق الاول للترجمة من انها ترجمة حرفية ينظر فيها الى كل كلمة بمفردها مبالغ فيهِ لانهُ اذا ترجمت الكلمات كلمة كلمة اتت الترجمة خالية من المعنى ولكن اذا اكثر المترجم من الاعتماد على الكلمات ولم يفهم معنى المؤلف ويعبر عنهُ تعبيراً صحيحاً جاءت الترجمة سقيمة جدًّا ولعل هذا هذا مراد الصفدي . والظاهر ان بعض المترجمين اعتمدوا عليهِ وهو السبب في خروج الترجمة العربية لبعض كتب الفلسفة اليونانية ملتبسة المعاني بحيث يتعذر فهمها . فانهُ ليس في العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية هذا اولاً . وثانياً « ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائمًا » كما قال الصفدي ولان للكلمات معاني مختلفة ايضاً . ولكن يجب ان لا يغرب عن البال من جهة اخرى ان الفلسفة اليونانية القديمة فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من زعماء المذاهب الفلسفية كانت فلسفة محجبة بحجب الغيب والابهام غير واضحة الحدود فليس فهمها من الهنات الهينات فضلاً عن ان اسلوبهم في الانشاء كان عويصاً بعيد الغور

ولا يذل المرء على استعظام الغربيين لشأن الترجمة وقدرهم للصاعب التي تجشّموها حتى قدرها مثل مراجعة ما عانى الانكليز من المشاق في ترجمة التوراة . فانهم ترجموها بضع مرار من القرن الثامن للمسيح الى اواخر القرن الماضي حينما شرع في الترجمة الاخيرة المعول عليها الآن في الكنائس الانكليزية ما عدا الكاثوليكية منها وهي المسماة The Revised Version اي « الترجمة المنقحة » . وقد جاء في الانسيكلوبيديا البريطانية عن احدى الترجمات المسماة The Early Version اي الترجمة المتقدمة ما معناهُ « وكانت الترجمة المتقدمة تامة ولكنها لم تكن افضل من سالفاتها . نعم ان الترجمة ادق واضبط متنًا ولكنها تشتمل على جميع

عيوبهنّ . ففي الجزء الاول منها عبارات غير مفهومة وخارجة عن دائرة المعقول والسبب في ذلك شدة التعلق باهداب الاصل اللاتيني . وفي الباقي ترى الترجمة اسهل وارشق مع كثرة ما فيها من الكلام اللاتيني وغير الانكليزي »

ولما سعى الملك جيمس الاول في الترجمة المعروفة باسم الترجمة الرسمية The Authorized Version في اوائل القرن السابع عشر اصدر امراً قال فيه : اريد ان يبذل جهد خاص في اصدار ترجمة دقيقة للتوراة اذ لم ار حتى الآن توراة حسنة الترجمة في الانكليزية . وليوكل هذا الامر الى افضل علماء الجامعتين (اكسفورد وكمبردج) وليراجع الترجمة بعدهم الاساقفة واحبار الكنيسة الاعلام . ولتعرض بعد ذلك على المجلس الخاص ثم على الملك للمصادقة عليها »

ثم عينت لجنة مؤلفة من نحو خمسين عالماً للترجمة واقتضى اختيارهم مدة خمسة اشهر وقسموا فئات عهد الى كل منها في عمل خاص بها . وفي جملة الاوامر التي صدرت اليهم لاتباعها في الترجمة ما يأتي : « اذا عرضت كلمة ذات معانٍ كثيرة فليؤخذ المعنى الذي اصطلح عليه معظم الآباء الاقدمين فان ذلك اليق بالمكان واقرب الى الايمان . ولا يعلق على التوراة حواشٍ الاّ لتفسير الكلمات العبرانية او اليونانية التي لا يمكن اثباتها في المتن باختصار بل بتطويل »

ويبلغ من اهتمام الملك بالترجمة انهُ قال في الامر الذي اصدرهُ : « يجب على كل عضو من اعضاء فئات اللجنة ان يترجم الفصل او الفصول التي توكل ترجمتها الى فئته . وبعد ما يترجمها على حدة يجتمع بالاعضاء الآخرين الذين ترجموها فيقابلون ترجماتهم بعضها ببعض فيثبتون ما يثبتون ويمحون ما يمحون . فاذا فرغت هذه الفئة من عملها ارسلت ترجمتها النقحة الى الفئات الاخرى للنظر فيها . وهكذا الى الآخر . واذا ارتابت فئة بعد مراجعة الترجمة في شيء ورد فيها او رأت غير ما رأتهُ الفئة التي ترجمتها فلتعد الترجمة اليها مشيرة الى مواضع النقد او التخطئة وبينة الاسباب فاذا اتفقتا فبه والاّ سوي الخلاف في جلسة عامة تجمع زعماء كل فئة . واذا اشكل على اعضاء اللجنة شيء فليشاوروا فيه علماء البلاد الخارجين عن هيئة اللجنة »

وبعد الفراغ من الترجمة كتب احد الاعضاء بالنيابة عن زملائه يبين طريقة العمل . قال : « ولم نسرع في عملنا اسراع اصحاب الترجمة السبعينية ان صح ما قيل عنهم من انهم

ترجموا التوراة في ٧٢ يوماً . فان هذا العمل كلفنا من الوقت ضعفي السبعة مضروبة في ٧٢ يوماً (اي نحو الف يوم او ٣ سنوات) واكثر من ذلك »

ومما يدلنا على الطريقة التي اتبعت في الترجمات القديمة والترجمة الاخيرة قول الانسيكلوبيديا البريطانية : « واذا قابلنا بين ترجمة سنة ١٦١١ وترجمة سنة ١٨٨١ وجدنا فرقاً كبيراً في طريق الترجمة . فان اصحاب الترجمة الثانية تحروا مزيد الامانة في النقل وجروا على خطة رفضها اصحاب الترجمة الاولى عمداً وهي ان تترجم الكلمة اليونانية الواحدة على الدوام بكلمة انكليزية معينة لا يتخذ غيرها مكانها . وكان همهم تمكين القارئ من تتبع الاصل جهد المستطاع ليرى الفرق بين التعبيرين ويشعر بقرابة صور التعبير التي لم يتعودها »

ولما شرع المرسلون الاميركيون في سورية يعربون التوراة بمعاونة بعض العلماء السوريين تحروا المحافظة على الاصل العبراني في العهد القديم واليوناني في الجديد وراعوا الامانة في النقل كل المراعاة كما فعل اصحاب الترجمة الانكليزية الاخيرة . ويقال ان الترجمة العربية جاءت اقرب الى الاصل من الانكليزية واكثر انطباقاً عليه لما بين العربية وتينك اللغتين وخصوصاً العبرانية من صلة القرابة وجامعة المكان وتشابه وجوه الكلام بين مجاز واستعارة وتركيب وبيان وغير ذلك . فان كثيراً من هذه لا يمكن نقلها من لغة الى لغة مع بقاء المعنى ظاهراً وهذا ايسر في اللغات التي بينها جامعة او رابطة مما هو في اللغات التي ليست بينها وشيجة قربى او نسب

وانا اعلم بالاختبار ان كثيراً مما في التوراة لا يفهمه الانكليز والاميركيون حتى يزوروا بلاد المشرق ويروا سماءها وارضها واهلها ويعرفوا ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون ويشاهدوا بأعين رؤوسهم هيئة منازلهم وترتيب محاولهم وكيفية ذهابهم وايابهم وقيامهم وقعودهم مما يختلف كثيراً عما عندهم ويوافق ما جاء في التوراة عن هذه الامور — فحينئذٍ يفهمون ما لم يفهموا

عندي صورة من صور العشاء الاخير مطبوعة في اوربا ويراد بالعشاء الاخير جلوس السيد المسيح ورسله على المائدة للمرة الاخيرة قبل موته . وقد رسموا لابسي حلل الارجوان الذي لم يكن يلبسه الا الملوك وهم صيادو السمك وسيدهم لم يكن له مكان يسند اليه رأسه كما جاء في الانجيل . ورصفت ارض الغرفة بالفسيفساء . ونشر على المائدة غطاء من الدمقس او الاستبرق ملون بالازرق اللازوردي او الاسمانجوني . وعلى المائدة بعض الارغفة واكواب الخمر ولولا ما في الانجيل من التصريح بان العشاء اقتصر على الخبز والخمر

رأينا صحاف الديوك الرومية وقصاع الدجاج الفيومية وطباق اللوزينج وجفان الفالوذج

هذا من قبيل ما يدل على جهل المصور لامور الشرق واهله . ومما يدل على جهله لفنه — وهو ما نذكره عرضاً وتطفلاً — تصويره للتلاميذ المسيح وقوفاً او جلوساً على جانب واحد من المائدة بدل ان يجلسوا حولها كما هو المعتاد وقد سرّحوا ابصارهم في الفضاء كانهم وقوف امام آلة المصور يستعدون لاخذ صورتهم بالفوتغرافيا . وغني عن البيان ان الفوتغرافيا لم تكن معروفة في ذلك الزمان . ولكن يقال من جهة اخرى ان من المصورين من لا يحجم عن لباس الاقدمين ملابس اهل هذا العصر كأن يلبس تلاميذ المسيح البرانيط والملابس الغربية الشائعة الآن وهو يعلم ان ذلك مخالف للواقع . يأتيه عمداً لانه لا ينظر في صورته الى اللباس وما شاكله من الاعراض بل الى الملامح والتقاطيع وهي عنده الجوهر . ولكن اذا اعتذر للمصور بمثل هذا فما عذر المترجم في مخالفة الاصل والشرود عنه في حين ان الامانة في النقل هي اساس الترجمة وجوهرها

وكثيراً ما يجد المترجم عن الانكليزية والفرنسوية الى العربية انه اذا حافظ على الامانة في تعريب الاستعارات والتشبيهات الغربية خرجت ترجمتها ركيكة لبعدها عن العربية . فان ابلغ الابيات الانكليزية لو ترجم الى عربية صحيحة وحوفظ على ما فيه من غرائب التركيب والمجاز لخرج اقرب الى غير الشعر منه الى الشعر والى غير الكلام منه الى الكلام . وشاهدي على ذلك اشهر مرثية عند الانكليزية وهي مرثية الشاعر غراي فان معانيها غريب عجيب بودي لو احفظه او لو كانت امامي نسخة من المرثية لاترجمه اذن لرأى القارئ العجب وسمع غير الطرب . على اني وان كنت لا احفظه لا يزال يعلق بذاكرتي اثر غرابته منذ كنت ادرسه في المدرسة

شاهد آخر : كان بيير لوتيه الكاتب الفرنسوي المعروف في الشرق يبكي على اطلال كنيسة رومية ويصف ما ابقت مدافع الالمان منها من الاثر الناحل فشبه بعض النقوش التي على جدرانها برسوم الدانتلا . والقارئ لذلك الوصف في لغته لا يقف عنده ولكن الذي يريد تعريبه بنثر شعري كما هو في الاصل و يأتي بالدانتلا او الشتلا في اثناء الوصف لا يجد من يقول له يُخ يخ او من يدعو لفيه بعدم الفض وليمينه بعدم الشلل وقلمه بعدم الجمود

وخلاصة القول ان الترجمة عمل شاق يقتضي علماً غزيراً واختباراً كثيراً فيجب ان لا يقدم عليها الا من تهيأت له تلك الشيمتان وخصوصاً اذا كانت الترجمة مرادة للبقاء وللمنفعة العامة . والا كان عدمها خيراً من وجودها

(ن . ش)